

جيل الغيب وصناعة الصمود: مقارنة قرآنية لكلام الإمام علي عليه السلام في واقع لبنان المعاصر

بقلم الشيخ علي حسن خازم

سنن الغيب وصناعة جيل الصمود: من الغدير إلى النموذج اللبناني المعاصر

ذكرى الغدير الأغر تستحضر دلالة الولاية في الوعي الإسلامي بوصفها امتداداً لقيم الحق والعدالة والإنسان، لا حديثاً تاريخياً منغلِقاً، بل مساراً رسالياً مفتوحاً على حركة التاريخ ومعانيه. يتجلى مفهوم "الولاية" كخط رسالي وعقائدي ممتد عابر للأزمان، وتأتي هذه القراءة لتضع خطاب الإمام علي (عليه السلام) في أفق سنني يتجاوز اللحظة إلى قوانين الاجتماع البشري وصناعة الصمود في الواقع المعاصر، ولا سيما في التجربة اللبنانية بما تحمله من تعقيد وابتلاءات وتحولات.

شيعت لبنان الذين نشرّبوها قيم هذا اليوم العظيم حوّلوا بيعة الغدير وولاءهم لأمير المؤمنين (عليه السلام) إلى مخزون روحي وبنية ثقافية تصنع الصمود وتمنح القدرة على مواجهة الانكسار. غير أن هذا الالتزام لم يبقَ منغلِقاً داخل دائرة الهوية الخاصة، بل ظلّ منفتحاً في جوهره على فكرة الشراكة الإنسانية والوطنية، حيث تتقاطع القيم التي يحملها هذا الإرث مع سائر المكونات في صناعة الاستقرار والدفاع عن الوطن.

الإمام علي (عليه السلام)، بوصفه إمام العدالة والحرية، لا يُحتزل في سياق مذهبي ضيق، بل يُقرأ في أفق القيم الإنسانية الكبرى التي تؤسس للكرامة وتمنع الاستبداد. ومن هنا، يتجاوز معنى الولاء له حدود الانتماء ليصبح انخراطاً في مشروع قيمي يلتقي فيه الخاص مع العام، والهوية مع الوطن، والاعتقاد مع المسؤولية التاريخية المشتركة.

حين وضعت معركة الجمل أوزارها، التفت أحد أصحاب الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) متمنياً لو كان شقيقه شاهداً ذلك النصر؛ فباغته الإمام بسؤال يفتح أفق الوعي التاريخي: «أهوى أهلك معنأ؟». فلما أجاب بنعم، صاغ الإمام معنى المشاركة الوجودية في الموقف بقوله: «وَلَقَدْ شَهِدْنَا فِي عَسْكَرِنَا هَذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ، سَيَّرَ عَفَّ بِهِمُ الرِّمَانُ، وَيَفْوَى بِهِمُ الْإِيمَانُ».

هذه الإشارة إلى "جيل الغيب" لا تُفهم بوصفها استشرافاً تاريخياً فحسب، بل بوصفها قانوناً في تشكل الأجيال وحضورها في مسار التحول التاريخي، حيث لا ينحصر الفعل الإنساني في لحظته، بل يمتد في عمق الزمن ليصنع أثره في أجيال لم تولد بعد.

ومن هذا المستوى التاريخي في فهم تشكل الأجيال، يتضح أن هذا الحضور العابر للزمن لا يُقرأ خارج منظومة السنن الإلهية التي تضبط حركة الاجتماع البشري، بل داخلها؛ وهنا يتأسس الانتقال إلى البنية القرآنية التي توصل لقانون الاستبدال وبنية الغيب.

التأصيل القرآني: سنن الاستبدال وبنية الغيب

تتقاطع هذه الرؤية مع السنن القرآنية التي تؤسس لفهم حركة التاريخ، حيث لا يُترك المجال للفوضى أو الصدفة، بل تُدار التحولات وفق قوانين ثابتة تعمل في العمق الإنساني والاجتماعي. ومن أبرز هذه السنن سنة الاستبدال، التي تشير إلى أن الحق لا يتوقف عند جيل أو جماعة، بل يتجدد عبر أجيال تحمل شروط الفاعلية والإيمان والعمل.

قال تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...} (المائدة: ٥٤).

هذه الآية تؤسس لفكرة أن الفاعلية التاريخية لا تنقطع، وأن الساحة لا تُترك فارغة، بل يُستبدل فيها الضعف بالقوة، والركود بالحركة، ضمن قانون إلهي يحفظ استمرار الحق في التاريخ.

كما تتجلى سنن الامتداد المعنوي في قوله تعالى:

{ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (آل عمران: ٣٤)،

حيث لا تُفهم الوراثة هنا بوصفها نسباً بيولوجياً فقط، بل بوصفها انتقالاً للقيم والمعاني والاتجاهات داخل البنية الإنسانية عبر الزمن، بما يجعل من الأجيال حلقات متصلة في مسار واحد من الاختبار والتمكين.

التقاطع السنني بين المعاني القرآنية والخطاب العلوي

تتقاطع خطبة الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة مع السنن الإلهية الحاكمة في القرآن الكريم، والتي توصل لمفهومين جوهريين يشكلان الركيزة العقائدية لفهم حركة التاريخ وصناعة الصمود: جيل النصر المدخر والشهود بالهوى والموقف.

1. جيل النصر المدخر:

إن العبارة البليغة التي أطلقها الإمام "سيرعف بهم الزمان" لا تتقف عند حدود الاستشراف التاريخي، بل تجد جذرها القرآني العميق والصلب في "آية الاستبدال" الشريفة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ (المائدة: ٥٤).

فالمنظومة القرآنية تؤكد بشكل حاسم أن الحق لا يعقم أبداً، وأن الساحة لا تخلو من القائمين بالقسط؛ فحين تتعب الأجيال الحاضرة، أو تتراجع تحت وطأة الضغوط والحروب النفسية، فإن الله سبحانه وتعالى يخرج من غيب الغد المستقبلي أجيالاً جديدة تتسم بصلابة القوة وثبات العقيدة. هذا الامتداد في بنية ثقافية متوارثة مؤصل وممتد أيضاً في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣٤)، حيث لا تقتصر الوراثة هنا على المادة، بل هي وراثة معنوية تتوارث فيها القلوب روح الصمود، وتنتقل الأمانة من جيل إلى جيل عبر وشائج الروح والولاء الممتد، تماماً كما تتدفق دماء النصر في أوردة أجيال لبنان اليوم.

2. الشهود بالهوى والموقف:

لقد أعاد الإمام علي (عليه السلام) صياغة معايير الحضور والمشاركة حين اعتبر أن من مال قلبه وانحاز هواه نحو جبهة الحق، فهو شريك فعلي ومباشر في الميدان وفي الأجر، وإن غاب جسده وعاقته الموانع الجغرافية أو البدنية. هذا المفهوم العلوي الشريف يتأصل قرآنياً في أحد تجلياته عند النشأة الإلهية على معذوري غزوة تبوك، والذين خلدتهم الوحي في قوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (التوبة: ٩٢).

لقد سجّل القرآن الكريم حضور هؤلاء "البكائين" في قلب المعركة وفي عسكر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، واعتبرهم جزءاً لا يتجزأ من الميدان، لأن نواياهم الصادقة ومشاعرهم الحية سبقت أجسادهم المحاصرة إلى ساحات المواجهة؛ وهذا تماماً ما يفسر كيف أن كل قلب نابض بالوفاء والموقف اليوم، عابر للمناطق والحدود، هو شريك حقيقي في تثبيت دعائم الصمود اللبناني الراهن.

لبنان اليوم: من أرحام المعاناة يولد الغد

حين نسقط هذه المعادلة السننوية على لبنان المعاصر، نجد أن هذا البلد الذي يمر بمرحلة صعبة من الاعتداءات الإسرائيلية المستمرة، وأزمات النزوح المأساوية، والانهيار الاقتصادي، لا يسير نحو الفناء، بل يعيد إنتاج كلام الإمام علي (عليه السلام) في مشهدين حيين ينبضان بالكرامة والحياة:

المشهد الأول: عسكر الإغاة والتضامن العابر للمناطق

في لحظات العدوان والأزمات الكبرى، يتحول التضامن الشعبي اللبناني العفوي والمنظم إلى مصداق عملي وتطبيق صارخ لـ "الشهود بالهوى والموقف". فاللبناني الذي فتح بيته وقاسم لقمته مع نازح وافد، وأولئك الشباب الأتقياء الذين تطوعوا في الجمعيات الإغاثية وفي الساحات لبسمة الجراح وتضميد الآلام، قد شاركوا فعلياً وبأجر كامل في معركة الصمود الإنساني والوطني.

إن هؤلاء لم يحملوا السلاح على الجبهات الأمامية، ولم يخوضوا غمار المواجهة العسكرية المباشرة، لكن "هواهم وقلوبهم ونواياهم" كانت هناك في خندق الثبات، فشهدوا الميدان بنبل مواقفهم، وأثبتوا أن وحدة المعاناة الإنسانية والوطنية أقوى بكثير من حواجز الطوائف والمناطق المصطنعة. هذا التلاحم اللبناني الفريد يجد ظلالة القرآنية الوارفة في قوله تعالى مشيداً بثقافة العطاء وقت المحن: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩)؛ حيث يصبح الإيثار اللبناني هنا هو خط الدفاع الخلفي الذي يحمي ظهر الوطن ويثبت أركانه.

المشهد الثاني: جيل "الرعاف" اللبناني.. كسر اليأس

على الرغم من أن الشباب اللبناني يعيش اليوم حالة من الإحباط والضغط النفسي الرهيب الذي يدفعه نحو الهجرة والاقتراب من حافة اليأس المظلم، إلا أن نبوءة الإمام علي البليغة "سيرعف بهم الزمان" تأتي لتكسر هذا الجمود وتفتح نافذة أمل كبرى للمستقبل. فمن رحم الأسر الصابرة المحتسبة، ومن أرحام أمهات الشهداء الأبرار، والجرحى المضحين، والنازحين المظلومين، يولد اليوم جيل جديد يرفض الخنوع والاستسلام للواقع المفروض بشروطه الحالية.

إنه جيل يحمل وعياً سيادياً وعلمياً وثقافياً طاهراً، وغير ملوث برواسب الماضي الفاسد أو الرهانات الخاسرة. هؤلاء هم "جيل الرعاف" الذي سيجود به الزمان بغزارة وتدفق فجائي، ليتصدروا المشهد بكثرة ونضارة، فيقوى بهم الإيمان بمستقبل هذا الوطن الصامد، ويعيدوا بناء مؤسساته المتهاككة، ويثبتوا خطى صموده الأسطوري ضد أي محتل غاشم أو

مفسد في الداخل. هذا التدفق المبارك هو مصداق الوعد الإلهي بالفرج والتمكين بعد اشتداد الخطوب، كما في قوله تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} (القصص: ٥).

خاتمة:

إن كلام أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ليس مجرد نص أدبي بليغ يُقرأ للذكرى والبركة، أو ترف فكري يمر عليه الزمن، بل هو قانون تاريخي مفتوح على المستقبل يبعث الطمأنينة المطلقة في القلوب الصامدة والنفوس المتعبة. يخبرنا هذا القانون العلوي، المدعوم بالسنن القرآنية الحاكمة، أن جبهة الحق الإنساني والوطني والأخلاقي في لبنان هي جبهة ولادة بالوعي، ولن تموت أبداً بموت جيل، أو تنكسر بانكسار مرحلة زمنية عابرة، أو تتراجع أمام آلات القتل والدمار والفساد.

وما دامت هناك قلوب تفيض بالحب وتهوى الكرامة والحرية، وتتضامن عابرة للمناطق والخرافات الضيقة، فإن أصلاب هذا الوطن الشامخ وأرحامه الطاهرة ستظل تدخر للبنان، من غيب الله وبصيرة النهج، غداً أقوى، وأجمل، وأكثر إيماناً بالحرية والسيادة الحقيقية. إنه جيل الغيب الذي يولد من رحم المعاناة الراهنة ليصنع فجر النصر الحتمي ويحفظ أمانة الأرض والإنسان.

=====

الأربعاء، ١٧ ذو الحجة، ١٤٤٧هـ - ٠٣ حزيران، ٢٠٢٦ م.